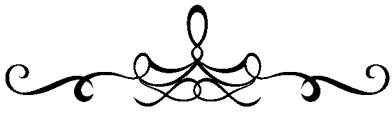

كاتب شلبي[٩٨] وكتابه (جهان نما)[٩٩]

وُلِدَ "كاتب شلبي" في فبراير/شباط عام (١٦٠٩م) بحيّ الفاتح بإسطنبول، وكان والدُه رجلًا ورِعًا، تخرّج في مدرسة الأندرون[١٠٠]، وعمل في القصر، وكان يلازم مجالس العلماء والشيوخ، شغل ليله بالعبادة، وعندما بلغ ابنه الكاتب شلبي -واسمه مصطفى- الخامسة، اتخذ له والده مدرسًا، فتلقى عنه العلوم الدينيّة الأولى، وعلّمه اللغة العربيّة والخطّ العربيّ؛ حفظ شلبي في تلك المدّة جزءًا من القرآن الكريم، ولما بلغ الرابعة عشرة عمل محاسبًا مبتدئًا في إدارة حسابات الأناضول؛ فتعلّم قواعد المحاسبة وخطّ "سياقت (*siyakat*)"[١٠١]، وهو نوع من الكتابة

(٩٨) كاتب شلبي: يعرف بين العرب باسم حاج خليفة أو حاجي خليفة.

(٩٩) جهان نما: أي وصف العالم.

(١٠٠) الأندرون: اسم أطلق على القسم الذي يبدأ من الباب الثالث من أبواب قصر طوب قابي، وهو باب السعادة، ويشمل غرفة العرض، والغرفة الكبيرة، والخزينة الهمايونيّة، والمستودعات، وغرف الأمانات المقدسة، والمطبخ السلطاني، ثم الباب الذي يؤدي إلى الحرم السلطاني، والدور الذي كانت تؤديه أكاديمية الأندرون لا يقل أهمّيّةً عن الدور الذي تؤديه اليوم كليات العلوم الإدارية من تنشئةِ الموظفين وتهيئتهم لإدارة المناصب، واستلام الأماكن الحساسة في الدولة . سهيل صابان: معجم المصطلحات العثمانيّة التاريخيّة، ص٤٠.

(١٠١) نوع خاص من الخط المستخدم في الدوائر المالية بالدولة العثمانية، كان يخلو من النقاط، وكان الحرف أو الشكل الواحد مختصرًا من عدة أحرف، ولم يكن يلم بقرائته إلا المتخصصون، وكان الهدف من استخدامه عدم تمكين كل واحد من قرائته، وقد قيل إنه وجد في العراق في عهد العباسيين، ثم انتقلت إلى الأناضول في عهد السلاجقة. (صابان، ص ١٣٧).

الاختزاليّة تستخدم في حفظ السجلّات الماليّة وأسانيد الملكيّة العقاريّة، واجتهد في عمله حتى تفوق على معلمه في غضون مدّة قصيرة.

في عام (١٦٢٤م) خرج مع الجيش العثمانيّ في حملة "ترجان (*Tercan*)" ، وهو ما زال في الخامسة عشرة من عمرِه، فسنحت له الفرصةُ في تلك الحرب بمراقبة -عن كثبٍ- مدى الألم الذي تُسفِر عنه الحروب، وفي عام (١٦٢٦م) شارك في حملة "بغداد"، وخلال حصار استمرّ تسعةَ أشهُرٍ أصبح شاهد عِيان على مُجريات الحرب كلّها وفقد والده في الموصل، وبعد شهرٍ فقد عمّه في "نُصيبين"[١٠٢]، وبمساعدة أحد أصدقاءِ والده التحق بوظيفةٍ في شؤونِ محاسبات الفرسان.

وفي عام (١٦٣٠م) شارك مع "خسرو باشا" في حملتي "همدان" و"بغداد"، وبين عامي (١٦٣٣ و١٦٣٤م) خرج مع جيش يقوده الصدر الأعظم "محمد باشا" إلى حملة الشرق في المرّة الثانية، وعند تراجُعِ الجيش إلى حلب لقضاء الشتاء استأذن قائد الجيش وذهب إلى الأراضي المقدّسة لأداء فريضة الحجّ، واشتهر بعد تلك الزيارة بالـ "حاجّ خليفة" أو "حاجي خليفة"، وكان عمره آنذاك ستّة وعشرين عامًا، وفي عام (١٦٣٥م) شارك مع السلطان "مراد الرابع" في الحملة على "روان (*Revan*)".

ميراث أُنفق على الكتب

شارك الكاتب "شلبي" في حملاتٍ عديدةٍ مع الجيش على مدار عشر سنوات، ثمّ وقف نفسه للدراسات العلميّة، فقد عاد -على حدّ قوله- من

(١٠٢) نصيبين: مدينة تاريخية في الجزيرة الفراتية العليا ومنطقة إدارية تقع حاليًا ضمن حدود تركيا وتتبع محافظة ماردين.

"الجهـاد الأصغـر إلى الجهاد الأكبر"، وكان "شـلبي" بتعبيره هذا يعني أنّه يعدّ تلك الحياة الشاقّة بين الخنادق على مدى عشر سنوات من عمره هي الجهـاد الأصغـر، وكان يقصد بالجهـاد الأكبر تلك الحـرب التي خاضها للقضاء على الجهل.

فـي عام (١٦٣٩م) توفّي أحدُ أقاربه الأثريـاء؛ فورِث عنه عدّة أحمالٍ مـن النقـود[١٠٣]، فأنفق منها ثلاثة أحمال على شِـراء الكتـب، وقام بترميم منزلـه بحـيّ "الفاتـح جارشـمبا" بالمبلـغ الباقي، ثـمّ تزوّج وتفـرّغ تمامًا للعلـم، وانـزوى إلى ركنٍ متواضـع عازفًا عـن المنصِب والراتب، ووهبَ نفسـه تمامًا للعِلم والتأليف، واستمرّ على ذلك بقيّة عمره، فكانت النتيجةُ أنّه ألّف آثارًا نفيسة سبقت عصره.

عصر الكاتب شلبي

واظـبَ "الكاتـب شـلبي" على دروس علمـاء عصره، ولطالما سـعى لتلقـي العلـم مـن أهلـه، ولـم تتنـاولْ كتبُـه موضوعًـا معيّنًا، بل اشـتملت على مسـائل علميّة شـتّى مثـل: التاريخ والجغرافيـة والرياضيات والفلك والسِّيَر والتعريف بالكتب والتربية والفلسفة وإدارة الدولة.

وقد ألّف "الكاتب شلبي" نحو عشرين كتابًا، يكفيه أحدها لتخليد اسمه.

كما أنه أتقن اللغتين العربيّة والفارسيّة حتى إنّ له مؤلفات بهما، وألّف كتبًـا قيّمةً بالعربيّـة منها: "فذلكة التواريخ" وهو يُعدّ مـن الآثار التاريخيّة، و"سُـلَّم الوصـول إلى طبقات الفحـول" وهو من أمّهـات كتب الفهارس، و"كشف الظنون" المعتنى به إلى الآن بوصفه أحد المنابـع الرئيسة للعلم،

(١٠٣) الحمل: تعبير يستخدم بدلًا من مائة ألف آقجة في التاريخ العثماني.

وتُرجم إلى اللاتينيّة أواسط القرن التاسع لقيمته العظيمة، ولم يكتفِ في دراساته بالمصادر المكتوبة بتلك اللغات الثلاث، فتعلّم اللاتينيّة للاستفادة من الكتب الكثيرة المتداولة في عصره، وترجم بعض الكتب ذات القيمة العلميّة؛ لتُعرِّفَ الغربَ وتاريخه بصفة خاصّة(١٠٤).

يُعدّ "الكاتب شلبي" من نُخبة علماء القرن السابع عشر ومؤلّفيه من حيث فكره وآثاره، حتى إنّ بعض الكتّاب يطلقون على القرن السابع عشر من حيث تاريخ العلوم والثقافة عصر "الكاتب شلبي"، بل إنّ كتب تاريخ الدولة العثمانيّة -وهي تتحرّى عن تاريخ العثمانيّين السياسيّ والعلميّ والثقافيّ في القرن السابع عشر- تُفرِدُ أقسامًا خاصّة لـ "كاتب شلبي".

لقد استطاع "الكاتب شلبي" أن يقفَ نفسَه للعلم والتفكّر وتأليف الأعمال رغم كونه يعيش في عصرٍ تعاني فيه الدولة العثمانيّة عدّة أزمات واضطرابات حادّة مع مختلف مؤسّساتها ومنظماتها، وأحرز بآثاره تفوُّقًا على كتّاب عصره وباحثيه رغم أنه لم يتلقَّ التحصيلَ المدرسيّ، ولم يلتحق بفصول العلم(١٠٥).

عزلة الكاتب شلبي

حان وقت ترقية الكاتب شلبي أثناء حملة كريت بين عامي (١٦٤٥-١٦٤٦م)، إلا أنّ العلاقة بينه وبين رئيسه لم تكن على ما يرام، ولما قال لرئيسه:

(١٠٤) أورخان شايق قوكياي، كاتب شلبي، أنقره ١٩٨٦م، ص ٨.

(١٠٥) حوريه يكلف، كاتب شلبي وكتابه سلم الوصول، أنقره ١٩٩٦م، ص ٢٦٧.

- عملت في الوظيفة نفسها عشرين عامًا، ألم يحن الوقت لأكون رئيس المحاسبين؟

ردّ عليه رئيسه:

- لن تنال هذه الوظيفة أبدًا حتى نهاية عمرك!

وعلى إثر ذلك ترك وظيفته ثلاث سنوات، وانعزل عن الناس، وشُغِل بتدريس تلاميذه خلال تلك المدّة.

كان شيخ الإسلام "عبد الرحيم أفندي" صديق "الكاتب شلبي" وبيتَ سرِّه، فكان يشاوره في قضايا كثيرة، منها أن شيخَ الإسلام سأله يومًا:

- هل من المناسب تعيين "فاضل باشا" قائدًا، وإرساله إلى "صاقيز" بعدّة سفن حربيّة لنقل جنود الأناضول إلى كريت؟

فأجابه:

- إجراءٌ في محلّه، وأنا معجَب بهذا القرار!

يرجع الفضل في تولي "الكاتب شلبي" وظيفته من جديد إلى أن "عبد الرحمن أفندي" قد أَطلَعَ الصدر الأعظم "محمد باشا" على كتاب "تقويم التواريخ" لـ"شلبي" ممّا أثار إعجاب الصدر الأعظم وقلّده منصب محاسب ثاني في الباب العالي، على الرغم من الجهود التي بذلها المعارضون له لإثنائه عن هذا العمل.

دستور العمل

عام (١٦٥٢-١٦٥٣م) استُدعي "الكاتب شلبي" للانضمام إلى الهيئة

المجتمعة لتصحيح الموقف الماليّ للدولة، وتحرّي أسباب نقص مواردها وزيادة نفقاتها، والعمل على إيجاد حلّ لذلك العجز في الميزانيّة، فألّف حاجي خليفة -شلبي- كتابه "دستور العمل"، وقدّمه إلى الديوان؛ ليصلح الخلل ويوضح ما يجب عمله؛ إذ أشار إلى دخول الدولة العثمانيّة حالة من الركود، وأنّ على الإداريّين الوقوف على هذا الأمر واتخاذ الإجراءات اللازمة.

تُعدّ نصائح وتوجيهات "الكاتب شلبي" في تقريره أُسُسًا خالدةً لكل مَن يتسلّمُ أماكن حيويّة بإدارة الدولة؛ فيقول:

> "رغم علمي من الآن أنّ تقريري سيُغفل، وأنّ قولي سيُهمل، إلا أنّ مبعث خوفي هو أنّ الله تعالى سيسألني غدًا يوم القيامة، وسيقول، كنتَ من النخبة المثقفة في هذا الوطن، لماذا لم تبُح بالحلول عندما رأيت ذلك الفساد؟ ولماذا تقاعست عن دورك؟؛ لذلك أديت واجبي بهذا التقرير لأبرَأ إلى الله، وأؤكد أني إنما كتبته انطلاقًا من هذا المبدأ"(١٠٦).

وقد حافظ "شلبي" على حياده وهو يوضّح ويُحارب الفساد الذي تغلغلَ إلى إدارة الدولة، وأسبابَه وعلاجَه، ولم يقع تحت أيّ تأثير، ولم يتوان عن ذكر الحقائق التي يعرفها؛ فتصرُّفه هذا يُعدُّ من أهمِّ الدروس والعِبر التي تُتّخذ من حياته.

يَقبَلُ "الكاتب شلبي" -المُشَبِّه حياة المجتمع بحياة الإنسان- فكرةَ أنّ كلّ مجتمع مُعرّض لحِقَب من الازدهار والضعف، ورغم قبوله ذلك إلا أنه يقول:

(١٠٦) قوكياي، المصدر السابق، ص ٩.

"عُمر أيّة دولة سيطول -بإذن الله- لو توافر لها المهَرَةُ من الإداريّين، مستشهدًا بالحكمة العثمانية:

"العالَم لا ينهار بالكفر، بل ينهار بالظلم"[١٠٧].

ثلاثُمائةٍ وألفُ مجلّد

كان "الكاتب شلبي" مولعًا بقراءة الكتب؛ حتى إنّه يسهر في قراءة الكتاب حتى الصباح، واهبًا نفسه أكثر من عشر سنوات للبحث والدراسة ليل نهار، وأحيانًا كان ينسى نفسه أمام الكتاب، فيشعل الشمعة في غرفته من غروب الشمس حتى شروقها من دون أن يشعر بملل.

كان أثناء رِحلاته يزور بائعي الكتب القديمة، ويجمع كتبًا لا تُعدّ ولا تُحصى، وذكرنا آنفًا أنّه أنفق على الكتب جزءًا كبيرًا من ميراثٍ آل إليه، وكان يُعْرِب عن شعوره بالفخر دائمًا لكونه يمتلك كتبًا يظنّها بعض الناس قد فُقدت، وكان يسعى جاهدًا ويبذل ما يستطيع من المال من أجل الاطّلاع على الكتب التي يسمع بوجودها في أيّ مكانٍ آخر حول العالم.

أولى اهتمامًا كبيرًا بالأعمال التاريخيّة، وجمع كثيرًا من الآثار التاريخيّة، وقرأ كتبًا كثيرة لكي يستوضح أيّة جزئيّة يجهلها تاريخيًّا، وذكر أثناء حديثه في كشف الظنون عن كتابه "فذلكة التواريخ" أنّه اطلع على ثلاثمائةٍ وألف من الكتب التاريخيّة، وكرّر ذكر ذلك في كتابه "تقويم التواريخ".

لقد أكّد "شلبي" على ضرورة قراءةِ رجال الدولة والقائمين على السلطة كُتُبَ التاريخ، وادعى أنّ أخطاء القادة في الحروب إنّما نبعت من جهلهم بالتاريخ.

(١٠٧) قوكياي، المصدر السابق، ص ٣٧.

يقصّ المؤرخ الشهير "شهري زاده" -كما رُوي عن الثقات- واقعة عن تعلُّق "شلبي" بالكتاب، فيقول:

- ذات يوم استضاف شيخ الإسلام "يحيى أفندي" "كاتب شلبي"، فتجاذبا أطراف الحديث ثم سأله "يحيى أفندي":

- يا "شلبي"، قد نمى إلى مسامعنا أن في منزلك ما يزيد على ألف مجلد عن تاريخ الدولة العثمانية، أصحيح هذا؟

أجاب "الكاتب شلبي":

- نعم هذا صحيح.

ولما أحسّ في نظرات شيخ الإسلام الشكَّ، أتاه في الغد بعشرة بغال محملة بألف وثلاث مائة مجلد مختلفة؛ دَهِش "يحيى أفندي" حينما رأى الكتب على البغال، فقال "الكاتب شلبي":

- سيدي، تلك هي الكتب المجلّدة، وفي المنزل ما يزيد عنها من غير تجليد.

"الكاتب شلبي" والغرب

كان "الكاتب شلبي" يهتمّ أيضًا بالعلوم الأخرى غير التاريخ، وكان كلّما قرأ كتب الجغرافية رأى سبق الأوربيّين فيها، فقرّر كتابة "جهان نما" لسدّ ذلك النقص، وكان يقول:

> ''قرّاء الكتاب يمتلكون معلومات أكثر ممّن يقضون أعمارهم في التجوال، ويستطيع الإنسان بفضل الجغرافية أن يلفّ العالم''.

كان "شلبي" يرى كتب الجغرافية المكتوبة بالعربيّة والفارسيّة والتركيّة كتبًا مختلطة لا تَفِي بالغرض؛ فهمّ بتأليف كتابٍ يحاكي تلك المؤلّفات، أسماه "جهان نُما"، وبدأ تأليف كتابه عام (١٦٤٨م)، إلا أنه لم يستطع إتمام عمله نظرًا لعدم التوفر المصادر الكافية.

يُعدّ "الكاتب شلبي" أول باحث عثمانيّ فكّر بالرجوع إلى المصادر الغربيّة، فهو الذي فكر في الاستفادة منها لكي يسدّ أوجه النقص في الآثار التركيّة والعربيّة، فتعلم اللاتينيّة جيّدًا كي يتمكّنَ من الاستفادة من الأعمال المكتوبة بها، واطّلع بطريقة أو بأخرى على كتاب "لوامع النور في ظلمات أطلس مينور (*Atlas Minor Gerardi Mercantoris A. S. Hondio plurimis aenis Atque Illustratus*)" للكاتبين (*G. Mercator*) و(*L.Hondius*)، فقام بترجمته إلى التركيّة بمساعدة الشيخ "محمد إخلاص" الفرنسيّ الأصل الذي اعتنق الإسلام في مارس/ آذار (١٦٥٤م).

استأنف كتابة "جهان نُما" في ديسمبر/تشرين الثاني من العام نفسه بعد أن أكمل ثلثي الترجمة، واستفاد هذه المرّة من عدّة آثار لكتّاب غربيّين أثناء إعداد كتابه.

العمل الذي لم يكتمل

بعد المقدمة والمدخل تمّ ترتيب دول العالم المذكورة في كتاب "الكاتب شلبي" "جهان نُما" على النحو التالي:

> "جزر آسيا بدءًا من اليابان، وجزر الهند والصين مثل غينيا الجديدة، ومولق -مدينة في شمال إيران-، وجزر الفلبين، وجاوا، وسومطرة، وبورنيو، وسيلان، وبلاد الشرق الأقصى مثل:

بلاد الصين، وبلاد جنوب آسيا وأواسطها مثل: الهند، والسند، وكشمير، والتُّبَت، وأفغانستان، وأخيرًا فارس، وبلاد التركستان حتى شرق الأناضول"[١٠٨].

يُعرّف "شلبي" بشكل تفصيليّ في كتابه؛ فيشرح بيئة البلد الطبَعَيَّة جبالها وأوديتها وأنهارها ونباتاتها ومنتجاتها ويتناول بالترتيب على شكل أقسام أحوالها السياسيّة والإداريّة، وحياتها الدينيّة وأخلاقها وعاداتها ومستواها العلميّ والمعرفيّ، وصناعتها وتجارتها إلا أنّ وفاته في سنّ مبكرة حالت دون إتمام كتابه.

يُعدّ "جهان نُما" الذي طبعه "إبراهيم متفرِّقه" عام (١٧٣٢م) من أوائل الأعمال المطبوعة في العهد العثمانيّ، ثمّ تُرجم إلى عدّة لغات أوروبيّة، وعُدّ دليلًا إرشاديًّا لكثير من الرحّالة الغربيّين.

كما أن "جهان نُما" أثرٌ فَتَحَ للعثمانيّين آفاقًا جديدة حول تصوّر العالم؛ فقد وسّع رؤية النخبة المستنيرة بشكل لافت للنظر، وهيّأ أرضيّة لكتابة آثارٍ أخرى في مجال الجغرافية، وأصبح رمزًا لجهود تستهدف الدخول مع أوربّا في اتّحاد ثقافيّ موسّع، وغدا تعبيرًا عن تلك النزعة[١٠٩].

كشف الظنون: معجم فريد في قيمته

عمل "الكاتب شلبي" عشرين عامًا في كتابة "كشف الظنون"[١١٠]، الذي يُعدّ من أفضل معاجم الكتب والمؤلفين، وقد قام هذا الباحث الكبير

(١٠٨) أ.د./ حميد سعد سلن، كاتب شلبي-كتابه جيهان نما، مجمع التاريخ التركي، أنقره ١٩٨٥م، ص ١٢٧.

(١٠٩) قوكياي، المصدر السابق، ص ٤٨.

(١١٠) يعد "كشف الظنون" من أشهر ما ألف في التعريف بالكتب والعلوم، وأجلها. يشتمل على زهاء (١٥٠٠٠) اسم كتاب، ونحو (٩٥٠٠) اسم مؤلف، ونحو (٣٠٠) علم وفن.

بترتيب الأعمال التي اطّلع عليها بنفسه أو وجدها عند بائعي الكتب القديمة أو في المكتبات ترتيبًا أبجديًّا في هذا العمل المجيد.

سجّل في ذلك الأثر أسماء عشرة آلاف كاتب، وقدّم تعريفًا لخمسمائة وأربعة عشر ألف كتاب ورسالة، ويذكر "شلبي" الأعمال مع كاتبها وتاريخ كتابتها، والأقسام الفرعيّة مع الأقسام الرئيسة، ويذكر معها آثارًا علميّة أخرى ذات صِلة، ويهتمّ في مقدمة عمله -المقسمة إلى أجزاء متنوّعة- بتاريخ العلم وأهميّته، ويقوم بترتيب أسماء العلوم وتعريفاتها.

لعِظم قيمة "كشف الظنون"؛ قام الباحث الألمانيّ "فلوجل" بين عامي (١٨٣٥-١٨٥٨م) بطبع النصّ العربيّ مع ترجمته اللاتينيّة في سبعة مجلّدات، وطبع الفهرس أيضًا.

يقول "حاجي خليفة" أثناء حديثه عن طلاب العلم في "كشف الظنون":

> ''على الطالب أن يتطهّر من السجايا السيّئة، فلا بدّ أن يكون نقيًّا، فكما أنه لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب[١١١]، كذلك العلم لا يدخلُ قلبًا تستوطنه أخلاق الكلاب''.

كان العلماء فيما مضى يستقصون أوّلًا عن طبائع طالب العلم وأخلاقه، فلو بدا فيه خلق سيئ، أبَوا أن يعلّموه لكيلا يصبح في المستقبل معولَ هدمٍ، وإذا وُجد أنّه صاحب خلق حسن علَّموه، ولا يتركونه حتى يصل إلى مرحلة النضج خشيةَ أن ينال الفساد من دينه أو دين الآخرين[١١٢].

(١١١) البخاري: بدء الخلق، ٧.

(١١٢) أورخان شائق كوكياي، مختارات من مؤلفات كاتب شلبي، إسطنبول ١٩٦٨م، ص ٢١٦.

يتحدث "الكاتب شلبي" عن ضرورة التمسُّك بالمنهج العلميّ في تفسير الأحداث، موضّحًا أنّ العلم وسيلةٌ لنهضة المجتمع واستمرار وجوده، ويبيّن ضرورة احترام أيّ شيءٍ يتعلّق بالعلم قائلًا:

"للعلماء أهميّة في المجتمع تعادل أهميّة القلب في الإنسان".

كما يقول "كاتب شلبي" في موضع آخر:

"من يبغِ العلم، فعليه أن يكتب فرائده فورَ سماعها، وعليه أن يسجّل ملاحظاته عمّا يقرؤه؛ فالعلم صيد والكتابة قَيدُهُ، ولا بدّ كذلك من حفظ المكتوب؛ فالعلم في الصدور لا في السطور، فليس الهدف من كتابته الاعتماد على ما هو مكتوب، وإنّما الرجوع إليه عند النسيان"(١١٣).

يوضح "الكاتب شلبي" في كتابه "تحفة الأخيار" أنّ أعظم ما نقدّمه لأطفالنا من خيرٍ هو العلم، ويقول حول هذا الموضوع:

"نظرتُ في الدنيا، فإذ هي زينة وتخييل، ووجدت خيرَ جليسٍ فيها هو الكتاب، وجدت معه الأنس والراحة بلا أذى ولا امتعاض".

كما قال أيضًا:

"الكتاب خير جليس، يشارك الإنسان همومه، ويفتح قلبه ويثلج صدرَه، تصل به إلى كلّ ما ينشده قلبك، فأنعِمْ به من صديقٍ مخلصٍ أمين لا مثيل له، ولا يحزنك ولا يسوؤك".

(١١٣) قوكياي، المصدر السابق، ص٢١٩.

أما عن قدرة القلم، فيعبّر عنها قائلًا:

''مـداد القلـم أَحَدُّ من شَـرَاب السـيف، أي: من الـدم الذي يريقه، فما من كاتب إلا سيفنى، ويُبقِي الدهر ما كَتَبَتْ يداه''.

كان "الكاتب شلبي" مفكّرًا دؤوبًا ذا شخصيّةٍ وعلمٍ واسع وفكرٍ حرّ، صموتًـا، مِعوانًـا، حسـن الأخلاق، حليمًـا، ذوّاقًا، يصغـر للصغير، ويكبر للكبير، كان يقول في أعماله:

''ليـس مـن المنطق طلب المسـاعدة مـن الأمـوات، واعتياد السذّج والأطفال والنساء التدهّن بزيت الشموع عند الأضرحة إنما يرجع بالفائدة على حراس الضريح وبائعي الشموع فحسب''.

وكلّما سنحت الفرصة، كان ينتقد تلك النوعيّة من المعتقدات الباطلة.

لقـد حارب "الكاتب شـلبي" التعصُّـبَ بأنواعه كلّها في زمـنٍ كَثُرَ فيه التعصُّـب، حتـى كادت تقـع حرب أهليّة بيـن أبناء الوطـن، ورجا الله أن يرحم أصحاب التعصّب كلّهم، وكتب وحلَّل الأحداث المتسبّبة في وقوع هذه الأزمات.

لقـد بـذل جهـدًا لتوضيح خطإ التعصب وعبثـه معتمدًا علـى النقل -الكتاب والسنة- والعقل، وسعى إلى منـع هذا النوع من التيارات.

تحـرّي الحقائـق وسـعيُه لإظهارهـا أحد الأُسُـس البارزة فـي أعمال الكاتب شلبي، فشجاعته في الدفاع عن فكره، وتناولُه موضوعات الخلاف والنقاش بحياديّةِ قاضٍ، تبيّن أنّه يستحقّ تقديرًا أكثر ممّا قيل فيه.

يُعـدّ كتـاب "ميزان الحق" الذي ألّفه حاجي خليفة عام (١٦٥٦م) آخر أعماله، بدأه بمقدمة تشـرحُ ضرورة العلوم القائمة على العقل، وتناول فيه إحدى وعشرين مسألة مختلفة.

وفاته

في صباح السـادس من أكتوبر/تشـرين الأول (١٦٥٧م) شـعر شـلبي بالإغماء وهو يشـرب القهوة، وعمره يناهز الثامنة والأربعين عامًا، وتوفي فجأةً على إثر أزمةٍ قلبيّةٍ، وقبره في مقبرة صغيرة تقـع بين مجموعة بنايات سوق إسطنبول لتجارة الأجواخ بالقرب من جامـع "زَيرك شَبْصَفَا خَاتُون"، في الطريق مابين "سَرَاجْ خَانَة" و"أُونْ كَبَانِي" بحيّ الفاتح.

أكرِم وأنعِم بسيدة القصر الشجاعة..

إنها السيّدة التي غامرَت بحياتها لإنقاذ حياة السلطان «محمود الثاني»، فحالت دون تهالك وسقوط العرش العثمانيّ..

إنها أمينةُ الخزينة «جوري قلفا».